



قراءة في الأدب النسوي الجزائري
ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي "نموذجاً"
Reading in Algerian feminist literature
The Body Memory for Dreams Mosteghanemi is a Model

لخضر حشلافي

جامعة الجلفة (الجزائر)
Hachelafi2016@gmail.com

فاطمة بديرينة

مخبر الدراسات التاريخية والإنسانية جامعة الجلفة
جامعة عمارثليجي بالاغواط (الجزائر)
bedirinafatma@gmail.com

الملخص:

معلومات المقال

تتناول هذه الدراسة قراءة في الأدب النسوي الجزائري محاولة للوقوف على أهم عناصر السرد النسوي و الذي ركز على مشكلات المرأة وهمومها في الواقع و صراعها مع الرجل وممارسة حقوقها , كل هذه المواضيع تبنتها أيادي نسوية في أعمالهن الأدبية. كما تهدف هذه الدراسة إلى استنباط مواطن الجمال عند الكاتبة والروائية أحلام مستغانمي سيدة اللغة الروائية التي أضفت على اللغة نوع من التميز ونشرت عليها بريق الاختلاف والتجديد عرفت بثلاثيتها الشهيرة (ذاكرة الجسد - فوضى الحواس - عابر سرير)

تاريخ الارسال:

29 ماي 2021

تاريخ القبول:

13 جويلية 2021

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الخطاب .
- ✓ السرد
- ✓ الكتابة

Abstract :

Article info

This study deals with a reading in Algerian feminist literature as an attempt to identify the most important elements of the feminist narrative, which focused on the problems of women, their concerns in reality, their struggle with men and the exercise of their rights. All these topics were adopted by feminist hands in their literary works.

This study also aims to devise the beauty of the writer and novelist Ahlam Mosteghanemi, the lady of the narrative language, who added a kind of distinction to the language and spread the glow of difference and innovation on it, known by its famous trilogy (Memory of the Flesh - Anarchy of the Senses - A Beder)

Received

29 May 2021

Accepted

13 July 2021

Keywords:

- ✓ Discourse
- ✓ Narration
- ✓ Writing

مقدمة:

إن كتابة المرأة العربية المعاصرة بصفة عامة و الجزائرية بصفة خاصة كتابة أيديولوجية تتركز فيما تؤمن به من أفكار ومفاهيم وعليه تظهر صورة المرأة في السرد الحديث مغايرة للصورة التقليدية التي نعهد لها إذ تتخذ المرأة زمام المبادرة وتعتمد على نفسها في سبيل نيل استقلالها، حريتها مساواتها بالرجل ولذا استحوذت المرأة على الأدوار المركزية في معظم السرد النسوي الحديث و أصبحت القاعدة العامة للكاتبة النسائية هو التركيز على البطلة لا البطل، وعلى مشكلات المرأة وهومها في الواقع، بل واعتبرن قضية المرأة وتحريرها وصراعها مع الرجل وحققها في الحصول على مكان مساو تماما لمكان الرجل في الحياة هي القضية التي يجب معالجتها في أعمالهن الأدبية وفي المقابل اهتمام الكاتبات بقضية المرأة وصورتهما نجد كتابتهن عن الرجل تتخذ شكل المحكي عنه، فلا نراه - في الغالب - إلا من خلال وسيط (الرواية - البطلة - ضمير الغائب أو المخاطب) وبطولاته تصبح بطولية الغياب.¹

و إذا تكلمنا عن الأدب النسوي في الجزائر فإننا نجد أنفسنا نتحدث عن صاحبه و هي المرأة و وضعها الذي ينعكس بصورة مباشرة على أدبها , فالمرأة كانت تعيش حياة بعيدة عن الحياة الاجتماعية العامة و الثقافية و السياسية, كما أن الظروف التي كانت تعيشها داخل الأسرة في المجتمع كانت تنظر لها بنظرة الدونية و قد فرضت عليها حصارا وعزلة تامة في ظل التقاليد و العادات, زد على ذلك ظروف الاستعمار و القيود الاجتماعية و الضغوطات الأسرية التي كانت فيها المرأة الأكثر تضررا و اشد تخلفا بسبب حرمانها من التعليم و وضعها على هامش الحياة العامة.

لقد ظهر الأدب النسوي الجزائري متأخرا إذا ما قورن بمثليه في العالم العربي , و هذا ما يجعلنا نقول أن "الأدب النسوي و ليد الستينات و بصورة أدق هو من مواليد السبعينات , و عدا الرواية التي ضلت غائبة حتى عام 1979 لتطل علينا رواية "يوميات مدرسة حرة" و كان هناك مشروع رواية في أدب الراحلة "زليخة السعودي" إلا أن رحيلها حال دون ذلك"² و أول ظهور للقصة في الجزائر كانت من خلال المجموعة القصصية "زهرة ونيسي" (الرصيف النائم) سنة 1967, ثم مجموعتها الثانية (على الشاطئ الآخر) سنة 1974 و التي كان لموضوع الثورة الوجه البارز فيها , وهي السمة التي طبعت كل أعمالها و حتى الروائية منها, الى جانب زليخة السعودي "التي يمثل نتاجها القصصي مرحلة متطورة في القصة العربية المعاصرة في الجزائر خاصة أن زليخة عرفت طريق النشر منذ بداية الستينات , أي أنها عرفت الكتابة قبل الاستقلال و معه"³

الرواية النسوية بين الموضوع و البناء :

لقد كانت أزمة الوطن الموضوع المحوري في النصوص الروائية النسوية الجزائرية باعتبار أن الكتابة تتولد من رحم المعاناة , فكانت كتاباتهن تعبيرا عن الفترة الأليمة التي عاشتها الجزائر و عاشها الشعب الجزائري ومن أمثلة هذه الكتابات: "ياسمين صالح" وطن من زجاج" , سميرة قبلي " بعد ان صمت الرصاص" , هي روايات لم تخرج عن دائرة العنف التي عاشتها الجزائر خلال العشرية السوداء حيث اتخذت من كتاباتها رد فعل ضد العنف و الدموية و التحدث باسم الآخرين.

بالإضافة إلى موضوع الوطن نجد أن البعد الشخصي المتعلق بمواجس المرأة خصوصا في علاقاتها مع الرجل و المجتمع كان موضوعا ثانيا حاولت من خلاله الروائية الجزائرية ملامسة انشغالاتها و معاناتها داخل المجتمع . و ممن كتبت في هذا الموضوع "فضيلة الفاروق" والتي تلمس في رواياتها التطلع إلى التحرر من الكتب و قيود الماضي فكان الحب و الاغتصاب و العذرية و الزواج و إنجاب البنات و التعليم والحجاب و تهميش المرأة موضوعا للكتابة .

أما من حيث البناء فكانت بعض الروايات لا تخرج عن الكتابة الكلاسيكية المتذبذبة أحيانا برؤية فنية ضيقة و محدودة الأفق في جميع آلياتها السردية من (شخصيات, زمن, مكان, حدث...) ولعل من أبرزها رواية "من يوميات مدرسة حرة" و "لونجة والغول" لزهور ونيسي فبالرغم من أنها حاولت الخروج عن طابعها السردى في رواية "جسر للبوح و الآخر للحنين" إلا أنها عادت إلى موضوع الثورة التي لا تريد الخروج عنه مطلقا , ولكن ليس كالسابق إذ لم تكن شغلها الشاغل على الأقل في الظاهر.⁴

و يوجد نوع آخر من الروايات التي تجمع بين الكلاسيكية بكل بنياتها السردية التي تحسن استخدام عناصرها و لكن ببساطة يغيب التشويق في بعضها, مع توظيف بعض الجوانب الحديثة في الرواية الجديدة لدى بعض الروايات لكن دون خرق أسس البناء للرواية التقليدية .

أما النوع الثالث فهي الروايات التي تعتمد على خلخلة نظام الأبنية التقليدية و مجارات الجديد و الحداثي الذي يستند إلى الغموض و التجريد و اللغة الشعرية القائمة على المجاز و الغوص في أعماق الشخصية , وهذا النوع من الروايات لا يستجيب لعنصر واحد , تخلخل أفق توقع القارئ و تثير قلقه , الأمر الذي يجذب ذوق المتلقي و يجعله يشارك في إنتاج الدلالة و صنعها, وهي الروايات التي تسير العصر بأزماته و سرعته و صراعاته و فوضويته و مناخه الموجود حيرة و إحباطا و قلقا.⁵

من ابرز الكاتبات اللواتي خضن مغامرة الكتابة و دخلن ساحة المواجهة و اثبتن وجودهن بكتابات تضاهي الكتابة الذكورية بل و تنفرد عنها بأسلوب اكسبها الاختلاف و التميز, إننا نتكلم عن الكاتبة المبدعة أحلام مستغانمي سيدة اللغة الروائية أضفت على اللغة نوع من التميز و نثرت عليها بريق الاختلاف و التجديد عرفت بثلاثيتها الشهيرة (ذاكرة الجسد - فوضى الحواس - عابر سرير) و قبل قراءة لغتها الروائية وجب علينا التعريف بالكاتبة و تقديم مكونات شخصيتها الروائية.

ولدت أحلام مستغانمي سنة 1953 لأسرة جزائرية قبل سنوات من الثورة الجزائرية حيث ارتبط والدها بالأحداث السياسية ارتباطا كبيرا فكان من المطلوبين دائما من قبل الشرطة الفرنسية نتيجة لنشاطاتهم في أعمال المقاومة حيث كافح والدها محمد شريف ضد الاحتلال الفرنسي و شارك في مظاهرات كثيرة من ضمنها مظاهرة في منتصف الأربعينيات انتهت باستشهاد شقيقها مما استدعى محمد شريف إلى سفر لتونس لاستقرار هناك حيث ولدت أحلام بتونس و في عام 1962 حصلت الجزائر على استقلالها مما استدعى والدها العودة مرة أخرى إلى الجزائر و تلقت الكاتبة أحلام تعليمها في الجزائر لتصبح واحدة من أوائل جيلها تفوقا في اللغة العربية عندما مرض والدها و هي في الثامنة عشر من عمرها اضطرت إلى العمل في الإذاعة الجزائرية لإعالة أسرتها حيث قدمت برنامجا إذاعيا بعنوان "همسات" وانتشر هذا البرنامج و لمع بفضل أحلام ليتنبأ الجميع بكونها شاعرة واعدة، حيث بدأت الكاتبة أحلام مستغانمي مسيرتها الشعرية من خلال نشر أول قصيدة لها بعنوان "على مرفأ الأيام عام 1973 وتابعت نجاحاتها الشعرية بعد ذلك لتقدم قصيدة أخرى بعنوان "الكتابة في لحظة عري"⁶

تزوجت أحلام من صحفي لبناني و انتقلت لتقيم في باريس و كرست حياتها إلى أسرتها ثم عادت مرة أخرى و حصلت على الدكتوراه من جامعة سوربون حيث صدرت أول رواية لها بعنوان "ذاكرة الجسد" عام 1993 إذ كانت هذه الرواية هي الأكثر مبيعا حيث بيع منها أكثر من مليون نسخة مما شجعها على الاستمرار بكتابة الروايات الأدبية فقامت بكتابة "فوضى الحواس" عام 1997 ثم ملحق السيرة الذاتية لأحلام مستغانمي 79 رواية "عابر سرير" 2003 وهما روايتين مكملتين للرواية الأولى "ذاكرة الجسد" حيث اهدت هذه الرواية إلى والدها و إلى الروائي الجزائري الراحل مالك حداد.

لقد كان والد أحلام مستغامي "محمد الشريف" مصدرا مهما لمعلوماتها التاريخية و محرض لها على الكتابة , فقد كان البيت الذي نشأت و ترعرعت فيه بمثابة المدرسة الأولى التي تلقت فيها علوم التاريخ الجزائري و مبادئ الثورة و أخلاق المجاهدين , فقد كان ذلك البيت في تونس ملتقى للثوار الجزائريين الذين تضيق بهم الدروب في فترة زمنية معينة , فيلجؤون إلى بيته لأخذ استراحة قصيرة يلتقون فيها بزملاء آخرين و يلتقطون الأنفاس التي تعيد لهم القدرة على متابعة الطريق, و هذا ما جعل إحدى الأدبيات تقول عن روايتها الأولى: (لم اشك للحظة واحدة منذ صدور الرواية بأنها عمل لا يمكن أن تخطه إلا أصابع امرأة منقوعة في الجرح الجزائري و أمضت زمنا و هي تلملم حكايات آبائها الثوار و تحتزن غضبهم بداخلها)⁷

وربما كانت هذه الطفولة التي عاشتها أحلام بين أصدقاء والدها من المجاهدين هي أيضا التي جعلت ناقدا آخر يقول عن رواية " ذاكرة الجسد" أنها مكتوبة بأصابع (امرأة حديدية هي في خشونة أصابع الرجال)⁸ إن روايات أحلام مستغامي افتكت موقعا متميزا ليس لأحداثها الروائية بل للغتها الشعرية الراقية التي أخذت بحق البطولة في الرواية ولذلك الزخم الثقافي الهائل ليس في كمه و لكم في حسن توظيفه مع الحدث .

أحلام مستغامي التي تكلمت عن معاناة الشعب الجزائري خلال الاستعمار و أثناء الاستقلال و العشرية السوداء من خلال ثلاثيتها المشهورة " ذاكرة الجسد , فوضى الحواس , عابر سرير", حيث تطرقت أحلام مستغامي في رواية ذاكرة الجسد لجملة من القضايا الاجتماعية والسياسية، إذ يخاطب البطل فتاة جزائرية، ويتحدث أيضا عن ماضيه الذي يتعلق بالثورة، وقد أعجب هذا البطل بـ "سي الطاهر" أحد القادة المخلصين للثورة ويصاب هذا لبطل في إحدى المعارك فتبت زراعته، فينصحه طبيب يوغسلافي بالرسم، وأول صورة يرسمها هي جسر قسنطينة ويصبح رسام، وبعد 25 سنة يلتقي بينت سي الطاهر في احدي المعارض، ويتعرفان على بعضهما، حيث سماها حنين، وبعدها يبدآن بالتواعد ليلتقيا مع بعضهما، ثم يحدثها عن زياد الشاعر الفلسطيني وعن حبه للفتاة الجزائرية فيعرفها به عندما يأتي زياد لفرنسا وهي تعود من الجزائر فيصبحان رفيقان ويلتقيان في بيته، فيندم على تعارفهما الذي هو سببه، ففي مرة من المرات يستدعيه سي الشريف لعرس ابنة أخيه فيوافق على الحضور، ثم يعود إلى فرنسا وبسبب موت أخيه يرجع إلى الجزائر، وبعدها يظهر في بيت أخيه يكتب وتلك هي بداية رواية ذاكرة الجسد.

يقول الكاتب "رجاء النقاش" في كتابه " قصة روايتين" أن رواية ذاكرة الجسد رواية منضبطة فنيا و فكريا و ليس فيها أي نوع من الإثارة الجنسية أو السياسية، وليس فيها خروج على الذوق العام أو الاصطدام به، فليس فيها لفظ واحد بذيء أو مشهد واحد خارج على المؤلف، وليس فيها اقتحام جرح من أي نوع للمحرمات المعروفة في المجتمعات العربية.⁹

إن القارئ لروايات أحلام مستغامي يلتبس لغة سردية ذات ملامح جديدة فيها نوع من الشعرية مصبوغ بدقة الوصف و سعة الخيال، تجعلك تنسب وراء صفحاتها و تبحث عن نهاية تلك الرواية , وهذا راجع إلى اللغة المنفردة لأحلام مستغامي فهي حقا "حققت إنجازا أدبيا مغايرا و وصلت إلى مستوى الإبداع الأدبي الذي يمكن الافتخار به"¹⁰.

إذن فأحلام مستغامي من خلال كتاباتها تقوم بتقديم آلياتها و وسائلها للتعبير عن ذاتها و لتبرز وجودها , حيث تقوم بصياغة مجموعة مواضيع تكون مرتبطة بخلفياتها الأيديولوجية , فهي فعلا تحفز فكرة الاختلاف و تدعو إلى التعبير على مستوى الإنجاز الأدبي فهي تعني بشكل نصها الإبداعي و لحظة الكتابة عندها لحظة نائرة، فلفتها متميزة و منفردة عن غيرها و أسرة في ذات اللحظة، تلك اللغة التي تزداد جنونا كلما فعلتها على الورق , حيث قالت عن نفسها " أنا امرأة مجنونة و ازداد جنونا من حضرة الورق"¹¹ , وكما قالت: (ولذا توقفت أمام ذلك الدفتر مدفوعة بإحساس يتجاوزني... منذ اللحظة الأولى شعرت ان بيني و

بين هذا الدفتر ذبذبات ما, تعدني بكتابة نص جميل , على هذا الورق الأبيض الأملس الذي تضمه مفصلات حديدية و يغطيه غلاف اسود لامع لم يكتب عليه أي شيء¹²

إن أحلام مستغانمي أتت على اللغة وكسرت كل القيود التي تحد من حريتها في الكتابة والتعبير , و تعد صاحبة الكتابة النسوية المتميزة بقلمها و الرائعة بسردها , حتى قال عليها نزار قباني: " الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور بحر الحب, بحر الأيديولوجيا, .. بحر الثورة الجزائرية"¹³ وقال أيضا: " إن أحلام تكتب دون أن تدري, روايتها دوختني و أنا نادرا ما أدوخ أمام رواية"¹⁴

لذلك فإنها اتخذت من الكتابة وسيلة لتأكيد انتمائها القومي , فقد استعملت لغة معبرة و أفكارا راقية و خيالا خصبا و حسا مرهفا , كل هذه السمات ربطتها أحلام و نسجتها لتصل بالرواية الجزائرية الى قمة الرقي , حيث قال عليها الرئيس بن بلة: " إن أحلام مستغانمي شمس جزائرية أضاءت الأدب العربي, لقد رفعت بإنتاجها الأدب الجزائري إلى قمة تليق بتاريخ نضالها, نفاخر بقلمها العربي و التزامها القومي افتخارنا كجزائريين بعروبيتها"¹⁵.

إن اللغة الروائية عند أحلام مستغانمي تتمزج بين أنثى اللغة و اللغة الأنثى وكلاهما رحم خصب , حيث يستعصي التمييز بين المفردة المعبرة و بين أنا المتكلم, فعملية الانصهار و الذوبان الكتابية توهمنا بأن المتكلمة هي اللغة ذاتها, وإذا عدنا إلى رواية "ذاكرة الجسد" فإننا نجد أحلام قد وظفت الأنثى بطرق عدة منها:¹⁶

- أنثى التجاوز و ذلك حين حولت أحلام الجسد إلى أيقونة , بل عملية لاستمالة القارئ مهما كان نوعه أو صفته, فهي لم تكتب كتابة الجسد و إنما وظفت الجسد عنوانا للتخطي و التجاوز , أي أنها تعتمد إلى خرق كل الطابوهات لتؤسس علاقة جديدة بينها و بين العالم¹⁷ فهي تحاول خلق أفق توقع جديد, ففي رواية الجسد نجد أن المبدعة قد وظفت الجسد توظيفاً مغايراً للمعنى الحميمي, فشخصية "خالد" تمثل خلود الإبداع و إغوائه من طرف اليهودية و التونسية هو معنى محاولة التمازج , فاليهودية ترمز للكتابة في بعدها العميق, والتونسية و غيرها من الأخريات هن الكتابات الإبداعية التي تنفصل عن الذات المبدعة.

لذلك "حررت أحلام من ذاتها ذاتا ذكورية و سمتها بخالد لتحيل على الذات المبدعة الخالدة التي تحترف الكتابة بالجسد, من هنا تتجسد أنوثة الكتابة و كتابة الأنوثة و يكون الاتصال و الانفصال على مستوى التعبير اللغوي العلاماتي الذي يتخذ من الأنثى معبرا لتحقيق الرغبة الكتابة, فأحلام لا تجعل من الحب و الجسد شيئين منفصلين وإنما الانفصال يتم بعد الامتلاء"¹⁸ تقول أحلام مستغانمي: " أنا لا اكتب الجنس من اجل الإثارة بل اكتب كما أتكلم و أحس , أنا كاتبة الرغبة و لست كاتبة المتعة, كل كتاباتي قائمة على الرغبة, و المتعة شيء آخر لا يعنيني لان المتعة قتل للأدب"¹⁹

وظفت أحلام مستغانمي أيضا في كتاباتها الأنثى الأم , حيث تصور لنا في روايتها "ذاكرة الجسد" حرمان خالد من حنان الأم و تجرعه مرارة اليتيم " إن الذي مات أبوه لم يتيم, وحده الذي كانت أمه يتيم"²⁰ وقوله: " أما عوضتها بألف امرأة أخرى ولم اكبر"²¹

لم يجد خالد بديلا لأمه إلا في أحلام فما إن مدت يدها لمصافحته حتى استوقفه سوارها الذي ذكره بأمه , فأحلام مثلت الحزن الدافئ و الكتابة الحلم و هي بديل عن الكتابة الطفولية: " يا امرأة متنكرة في ثياب أمي ... في عطر أمي وفي خوف أمي علي"²²

كما وظفت أيضا من خلال كتاباتها الروائية الأنثى الوطن و من أمثلة ذلك قول خالد " رواية ذاكرة الجسد " :
يا امرأة على شاكلة وطن.....امنحيني فرصة بطولة أخرى
وأيا قولها: " أنت لست امرأة فقط, أنت وطن , أفلا يهملك ما سيكتبه التاريخ يوما"²³

ومن خلال دراستنا لكتابات أحلام مستغامي لاحظنا أن الكاتبة ركزت على الصراع بين الماضي و الحاضر فمثلا في رواية " ذاكرة الجسد" كان الصراع متمظها في شخصية خالد كما لاحظنا، فإنه قائم كذلك عند حسان وزوجته عتيقة، لأن حسان مرتبط ببيتته العائلي رافضا بيعه، فهو بعمله هذا اظهر رغبة في بقاء الاتصال بينه وبين الماضي (البيت العائلي) على عكس عتيقة التي تظهر رغبتها في ترك هذا الفضاء واستبدال حياتها فيه بحياة أفضل، رفضا في محاصرة الماضي لإرادتها المتمثلة في حب التغيير ولو على حساب وضعية زوجها المزرية كأستاذ ثانوية، فدائرة الصراع هذه التي ضمت الشخصيات الثلاث دلت على أن البطل قد عايش هذا الفضاء بايجابياته وسلبياته لأن وصفه له كان وصفا نفسيا وسيبقى كذلك على طول الرواية لا وصفا موضوعيا إقليديا، وهذا يدل على " أن هناك تأثيرا متبادلا بين الشخصية والمكان الذي تقيم فيه "²⁴ ، وتظل حلقة الصراع هذه متمظهرة دائما في سهرات خالد وحسان، فالحاضر في تغيير مستمر، شكلته صور الحجاج المزيفين، وأولئك الشباب الذين ينتحرون أصحاب الشهادات الذين لم يجدوا سوى الفراغ في انتظارهم، الوساطات التي لم يجد حسان لها طريقا للحصول على أمنيته البسيطة " الثلاثية " فكل هذه الصور عكست إذن تغيرا سلبيا لتزداد علاقة انفصال حسان وخالد بهذا الحاضر، فمدينة قسنطينة، ومن خلال الصور المشكلة لحاضرها ثبت أنها " مثار دائم لصورة الصراع "²⁵

إن الزمن في رواية " ذاكرة الجسد" زمن متداخلا، أي انه لا يسير سيرا منتظما من حيث الماضي و الحاضر والمستقبل، فعنصر الزمن في رواية " ذاكرة الجسد" لا يقوم في السرد على منهج التتابع الممتد للأحداث ومنطق السببية، بل القارئ عند قراءة النص والسرد هو الذي يرتب الشكل المنتظم لعنصر الزمن والسرد بحيث يدرسهما ضمن النظام الداخلي للأحداث التي سردت في الرواية مرتبا سببية أحداث الرواية، مستنتجا خطاب الكاتبة. لأن الباحث يرى أن "أحلام مستغامي حورت شكل الزمن لتلفت نظر القارئ إلى التفاعل بالسرد واستكناه الخطاب الكامن في السرد وذلك ضمن تسلسل الأحداث التي يرتبها .

وانطلاقاً من هذه الرؤية يمكن لقارئ هذه الرواية أن يقرأ تقنيات الزمن على ضوء نظام اللا ترتيب لشكل الزمن مندفعاً إلى التناسب بين السرد وخطاب الرواية وصولاً لمقاصد الخطاب فهذا التناسب يستنتج بالتواجد في قراءة النص، والشعور بالتنغم مع السرد بحيث إن القارئ هو بنفسه ينظم أحداث السرد، وزمن الأحداث التي حدثت أو التي ستحدث مستقبلا، مفسرا الخطاب على ضوء السرد، أو على ضوء زمن قرائته النص، أو على ضوء التنغم الشعوري مع السرد معا.

تبدأ الرواية زمنيا بزمن الحاضر إذ تنفتح الرواية و السارد جالس في غرفته بمدينة قسنطينة واستهل الرواي سرده من خلال إعادة ما قالته له البطلة يوما: "ما زلت اذكر قولك ذات يوم: " الحب هو ما حدث بيننا. و الأدب هو كل ما لم يحدث"²⁶ فقد افتتحت أحلام مستغامي روايتها بعبارات مليئة بالغموض و الحيرة لتشد انتباه القارئ و تثير فضوله في معرفة ما الذي حدث؟ و ما الذي لم يحدث؟ لتواصل قائلة على لسان الراوي: "هنيئا للأدب على فجيعتنا إذن فما أكبر مساحة ما لم يحدث .إنها تصلح اليوم لأكثر من كتاب.

وهنيئا للحب أيضا..

فما أجمل الذي حدث بيننا.. ما أجمل الذي لم يحدث .. ما أجمل الذي لن يحدث"²⁷

إذن بهذه العبارات الغامضة فتحت أحلام مستغانمي آفاقاً للتخيل أمام القارئ فالغموض في الكتابة السردية "مرتبط بطرائق صوغ القصة وتكمن خلفه قصدية الكاتب وقصدية الكتابة"²⁸

و ما كان للرواية من نقطة انطلاق تبدأ منها ، فان الروائي يختار نقطة البداية التي تحدد حاضره وتضع الكتابة في اتجاه واحد في بقية الأحداث على خط الزمن من ماضٍ ومستقبل وبعدها يستطرد النص الحاضر والماضي و المستقبل بين الزمن في غير انه يتذبذب ويتأرجح .ومن هنا تأتي تقنية ترتيب عناصر الزمن الثالثة - ماضي، حاضر و مستقبل - و هو ما يسميه " ميشل بوتور " تتابع الوحدات الزمنية في صيغة تخضع لإيقاع خاص "²⁹ فترتيب الأحداث في النص الروائي يتذبذب في مسيرته تذبذبا منتظما وغير منتظم بين الحاضر و الماضي ، وتتمثل هذه الذبذبة في تركيب الجمل والفقرات ، وفي تركيب الفصول والأجزاء الكبرى من النص الروائي.

إن رواية "ذاكرة الجسد" هي صراع بين الماضي والحاضر فالرواية بدأت بزمن الحاضر ومن خلال تقنية الاسترجاع يتم العودة إلى الماضي الذي بقي "خالد طوبال" حبيسه طوال الرواية، حيث استرجع "خالد طوبال" حدثا ماضيا: "آخر مرة استوقفتني جريدة جزائرية كان ذلك منذ شهرين تقريبا. عندما كنت أتصفح مجلة عن طريق المصادفة، و إذا بصورتك تفاجئني على نصف صفحة بأكملها ، مرفقة بحوار صحافي بمناسبة صدور كتاب جديد لك"³⁰، ليعود بعد ذلك إلى زمن الحاضر و زمن كتابة الرواية ، غير انه يعود ليسترجع علاقته بحبيبته: "أيّ موعد عجيب كان موعدنا ذلك اليوم ! كيف لم أتوقع بعد تلك السنوات أن تحجزني لي موعدا على ورق بين صفحتين، في مجلة لا أقرأها عادة "³¹.

" يومها تذكّرت حديثا قديما لنا. عندما سألتك مرّة لماذا اخترت الرواية بالذات. و إذا بجوابك يدهشني"¹. ثم يعود لزمن الحاضر و هو جالس في غ رفته يكتب " وفجأة .. يحسم البرد الموقف، و يزحف ليل قسنطينة نحوي من نافذة الوحشة. فأعيد للقلم غطاءه، و انزلق بدوري تحت غطاء الوحدة"³². ثم يعود إلى الماضي ليسترجع زمن سابق وهو ذكرى انطلاق الرصاصة الأولى لحرب التحرير: "... غدا ستكون قد مرت 34 سنة على انطلاق الرصاصة الأولى لحرب التحرير، و يكون قد مرّ على وجودي هنا ثلاثة أسابيع، و مثل ذلك من الزمن على سقوط آخر دفعة من الشهداء"³³. ثم يعود إلى زمن الحاضر لحظة الكتابة " كل شيء يستفزني الليلة.. و اشعر أنني قد اكتب أخيرا شيئا مدهشا، لن أمزّقه كالعادة..³⁴ بيد انه سرعان ما يرتد إلى زمن سابق فيسترجع حدث انضمامه إلى حزب التحرير: " ذات يوم من أكثر من ثلاثين سنة سلكت هذه الطرق، و اخترت أن تكون تلك الجبال بيتي و مدرستي السريّة التي أتعلّم فيها المادّة الوحيدة الممنوعة من التدريس. وكنت ادري انه ليس من بين خرّجيه من دفعة الثالثة، و أنّ قدرتي سيكون مختصراً بين المساحة الفاصلة بين الحرّية .. و الموت"³⁵ و قوله: " أكان التحاقي بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجمل خارج تلك الأحاسيس المرضيّة التي كانت تملاني تدريجيا حقدا على كل شيء؟"³⁶ ليقطع من جديد استرجاعه ويعود إلى زمن الحاضر: " من أين عاد اسم (سي طاهر) اللّيلة ليزيد من ارتباك، و من منكما استدريجني للآخر؟"³⁷ . و يعود للماضي مرة أخرى ليسترجع حدث دخوله لسجن الكدية و تعرفه على (سي طاهر): " في سجن الكدية كان موعدي النضاليّ الأوّل مع (سي طاهر) . كان موعدا مشحوناً بالأحاسيس المتطرّفة، و بدهشة الاعتقال الأوّل، بعنفوانه .. و بخوفه"³⁸. ثم يسترجع ذكرى مؤلمة تركت أثرا كبيرا في نفسه و في جسده و حولت مسار حياته و هي لحظة فقدانه

ذراعه اليسرى : " لم أكن أعني وقتها أنّ طموحاتي لا علاقة لها بالمكتوب و أنّ القدر كان يتربص بي في ذلك الوقت الذي كنت اعتقد فيه أنّ لا شيء بعد اليوم يمكن أن يعيدني إلى حزني السابق" ³⁹ .

" و جاءت تلك المعركة الضارية التي دارت على مشارف (باتنة) لتقلب يوما كل شيء.. فقد فقدنا فيها ستة مجاهدين، وكنت فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، سوى بتر ذراعي" ⁴⁰ . ثم يعود من جديد إلى الحاضر ليكمل كتابة روايته: " طلع صبح آخر... و هاهو ذا النهار يفاجئني بضجيجه الاعتيادي، و بضوئه المبالغ الذي يدخل النور إلى أعماقي غصبا عني..... لا بد ان اكتب عنك بعد أن أسدل كل الستائر، و أغلق نوافذ غرفتي.. " ⁴¹ . ليرتد بعد ذلك إلى استرجاع حدث سابق قدم من خلاله لحظات سفره إلى تونس و لقائه بحبيبته عندما كانت طفلة صغيرة : " من أين أبدأ قصتي معك؟... و لقصتك معي عدة بدايات، تبدأ مع النهايات غير المتوقعة و مع مقالب القدر" ⁴² .

ثم يقطع السارد الاسترجاعات ليعود إلى لحظة الكتابة معلنا عن كتابة رواية جديدة داعيا حبيبته لقراءتها : " فاقري هذا الكتاب حتى النهاية، بعدها قد تكفين عن كتابة الروايات الوهمية.... و طالعي قصتنا من جديد.. " ⁴³ . بهذه الكلمات أسدل الستار على الفصل الأول من الرواية لينفتح الفصل الثاني على استرجاع السارد لقائه بالحبيبة في معرض الرسم : " كان يوم لقائنا يوما للدهشة.... يومها كنت أنا الرسام و أنت زائرة فضولية على أكثر من صعيد" ⁴⁴ . و أثناء وصفه لحبيبته وكيف كبرت يقطع الحكاية ليسرد حكاية رسمه للوحة الأولى (حنين) و كيف امتهن الرسم و يسترجع الحوار الذي دار بينه وبين الطبيب الذي عاجله : " رسمتها منذ خمس و عشرين سنة، و كان مرّ على بتر ذراعي اليسرى اقل من شهر..... إنها الجملة التي قالها لي ذلك الطبيب" ⁴⁵ . " ... إن كنت تفضل الرسم فارسم.. الرسم أيضا قادر على أن يصلحك مع الأشياء... " ⁴⁶ " ... هاهي حنين لوحتي الأولى و جوار تاريخ رسمها (تونس 57)..... و أنا أسجلك في دار البلدية لأول مرة.. " ⁴⁷ .

و بعد هذا الاسترجاع يعود إلى وصف لقائه بحبيبته و زيارة (سي شريف) و (سي مصطفى) له و استرجاع أيام الحرب معا و لقائه بعشيقته (كاترين) .

في الفصل الثالث يسرد لنا "خالد طوبال" لقائه بحبيبته للمرة الثانية : " التقينا إذن.. قالت: مرحبا .. آسفة أتيت متأخرة عن موعدنا بيوم.. " ⁴⁸ و كان الفصل الثالث حكاية عن اللقاءات الغرامية بين (خالد) و (حياة) ليتغنى بها و بالوطن و زيارته لبيت عائلتها في تونس و تسجيلها في البلدية.

أما الفصل الرابع فكان عبارة عن استرجاعات متتالية يحكي من خلالها السارد تفاصيل سفر البطلة (حياة) إلى قسنطينة و يصف حزنه لفراقها " كان لفراقك مذاق الفجيعة الأولى... " ⁴⁹ غير انه يعود إلى زمن الحاضر : " سأعترف لك اليوم، بعد كل تلك السنوات، أنني وصلت معك يوما إلى ذلك الحد المخيف من اللاعقل " ⁵⁰ . ليرتد من جديد إلى زمن الماضي واصفا انتظاره لعودتها التي تزامنت مع زيارة "زياد" له و يحكي قصة تعرفها بزياد و حبها له : " التقيتما إذن .. و كان كلاكما بركانا .. فأين العجب، إذا كنت هذه المرة أيضا أنا الضحية ! " ⁵¹ ثم يخبر عن سفر زياد لغرناطة و يصف ألم الفراق ، و يحاول "خالد" استرجاع حبيبته فيفشل في ذلك . ثم يصف آلامه و حزنه عندما سمع خبر وفاة زياد ليعود إلى الحاضر بقوله: " متى ولدت فكرة هذا الكتاب؟ " ⁵² .

في الفصل الخامس يسترجع السارد تلقيه خبر زواج حبيبته، و يصف عودته للوطن و لقائه بغائلته و يسترجع حكايات من التاريخ (حكاية جده، و حكاية صالح باي) و يقطع الحكاية ليسترجع الأحاديث التي دارت بينهما في الماضي " اذكر ذلك اليوم

الذي قلت لك فيه: لو خلف هتلر ابنة في هذا العالم.. لكنت ابنته الشرعية!"⁵³ ثم ينتقل للحديث عن موت أخيه (حسان) و عودته لقسنطينة. لتنتهي الرواية من حيث بدأت من غرفة في قسنطينة.

إذن فرواية "ذاكرة الجسد" لم تخضع لتسلسل زمني بل كانت عبارة عن مزيج بين الماضي و الحاضر و الحقيقة و الخيال .

كما ارتبط الصراع بين الماضي والحاضر بفضاءين مختلفين بأولهما فضاء البيت الشعبي الذي يقطن فيه خالد، وثانيهما فضاء البيت الراقي الذي يسكنه عم أحلام سي الشريف، وكلا البيتان ينتميان لفضاء المدينة: قسنطينة، وقد كانت علاقة البطل بهذين الفضاءين تميزها المفارقة، فهو قد رفض الذهاب لبيت سي الشريف، لأن الحاضر (أحلام البطلة) الذي رسمه في ذهنه لجزائر ما بعد الاستقلال قد ألغى تماما ليعوض بحاضر صفة الآخرين ولأنه رفض هذا الحاضر الجديد فقد عزز من علاقته بالماضي أي بيئته العائلي وما ارتبط خالد بهذا الفضاء على هذا النحو إلا للإعلان (عن حاجته إلى إقرار وجوده والبرهنة على كينونته من خلال الإقامة في مكان ثابت)⁵⁴ فهو يؤكد أنه ورغم تغيرات الحاضر السلبية، فهو مازال رمز للماضي الثوري، أي أن له وجود وكينونة رغم ما حدث وما سيحدث، والتأكيد على هذه النتيجة لا يلغي ذلك الصراع الداخلي الحاد الذي عرفته ذات خالد صباح يوم عرس أحلام البطلة "واتجهت نحو النافذة وأشرعتها وكأني افتحتها ليخرج طيفك منها إلى الأبد"⁵⁵ ودائما نجد من يجسد إرادة خالد الرفض لحاضر الآخرين وقد تمثل في شخصية ناصر أخ أحلام البطلة، فعدم رغبة هذا الأخير في الذهاب لعرس أخته، اظهر لنا ميزتين :

- رفض قاطع لحاضر الآخرين من خلال انعزاله بفضاء المسجد للصلاة والتعب.
- أن ناصر مرتبط بالماضي الثوري الذي وصفه والده.

فهاتان الميزتان بينتا أن خالد ليس الوحيد المنفصل عن حاضر الآخرين، بل تمثل بصورة قوية في شخصية ناصر "رائع يا ناصر والله نستعرف بيه"⁵⁶ ، ولقد اختار كل واحد منهما أسلوبه في الرفض فنصر في هروبه إلى الصلاة وخالد في شربه للخمر، وإن تجلّى الرفض كذلك في شخصية حسان، إلا أن هذا الأخير قد اظهر بعض اللين اتجاه حاضر الآخرين، لأنه مرغم على التعامل معه.

الخاتمة:

إن الكتابة النسوية اتسمت بداياتها في الالتزام ولم تختلف مع نظيرها الذكوري إلا كونها كانت أكثر تركيزا على عنصر المرأة , و احرص على تجسيد معاناتها , فهو سعى إلى إبرازها في الساحة الإبداعية , أما فيما بعد تمثل في وجود كتابات نسائية تخطت مرحلة الاجتياح المباشر ووصلت إلى محاولة جادة لاكتشاف الذات وتحرير الداخل ردود الأفعال الآتية الغاضبة.

وكشف عن وعي عميق وموهبة لا تقل عمقا بل إن بعض هذه الكتابات قد حققت مكانة مرموقة في ساحة الثقافة العربية تصل إلى مرتبة الريادة و افتتاح آفاق غير مسبقة في مجالات الإبداع العربي.

- إن أحلام مستغانمي قلم أنثوي جرئ , جرى على بياض الورقة, مزق تقاليد الإبداع القديم , بلغة شعرية تراسلت بجسدها و نطقت به و حبا ورغبة ووطنا , وخدشت حرمة الرجل بقلمها المبدع.
- لقد وظفت أحلام مستغانمي في رواياتها أنثى التجاوز و ذلك حين حولت أحلام الجسد إلى أيقونة , بل عملية لاستمالة القارئ مهما كان نوعه أو صفته, فهي لم تكتب كتابة الجسد وإنما وظفت الجسد عنوانا للتخطي و التجاوز.

- كما وظفت الأنتى الأم حيث تصور لنا في روايتها "ذاكرة الجسد" حرمان خالد من حنان الأم و تجرعه مرارة اليتيم. بالإضافة إلى أنتى الوطن.
- و قد ركزت على الصراع بين الماضي و الحاضر الذي ظهر من خلال الشخصيات وصراهم مع الماضي و من خلال الفضاء .

الهوامش:

- (1) رجب موني ، وجوه بلا رتوش ، القاهرة دار غريب للنشر و التوزيع ، 1997 ، ص 156 .
- (2) احمد دوغانا ، الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ، دط، 1982، ص 8
- (3) المرجع نفسه، ص 29
- (4) المرجع نفسه، ص 30
- (5) واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط1، 1986، ص 475.
- (6) رئيسة موسى كريزم : عالم أحلام مستغانمي الروائي، دار زهران للنشر و التوزيع ، الأردن، 2010، ص 35.
- (7) المرجع نفسه، ص 43
- (8) المرجع نفسه، ص 505.
- (9) المرجع نفسه، ص 507.
- (10) المرجع نفسه، ص 510.
- (11) المرجع نفسه، ص 511.
- (12) أحلام مستغانمي: فوضى الحواس ، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، 2010، ص 25.
- (13) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت-لبنان، 2010، الغلاف.
- (14) المرجع نفسه، الغلاف
- (15) رئيسة موسى كريزم : عالم أحلام مستغانمي الروائي، ص 503.
- (16) بوضياف غنية: كتابة الأنتى/أنوثة الكتابة، أحلام مستغانمي أنموذجاً، جامعة محمد خيضر -بسكرة. ص 209.
- (17) المرجع نفسه، ص 210.
- (18) المرجع نفسه، ص 211.
- (19) المرجع نفسه، ص 218.
- (20) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد ، ص 27
- (21) المرجع نفسه، ص 329.
- (22) المرجع نفسه، ص 377.
- (23) المرجع نفسه، ص 184
- (24) رئيسة موسى كريزم : عالم أحلام مستغانمي الروائي، ص 231
- (25) د.إبراهيم رمان: المدينة في الشعر العربي الجزائري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2002، ص 8.
- (26) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط26، 2010، ص 7.
- (27) ذاكرة الجسد، المرجع السابق، ص 7
- (28) محمد معتمد: ، بنية السرد العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 12.
- (29) أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد، ص 15.
- (30) المصدر نفسه، ص 15.
- (31) المصدر نفسه، ص 18.
- (32) لمصدر نفسه، ص 21.
- (33) ذاكرة الجسد ص 24

- (34) المصدر نفسه ص ن.
- (35) المصدر نفسه ص 25.
- (36) المصدر نفسه ص 27
- (37) المصدر نفسه ص 28.
- (38) المصدر نفسه ص 30
- (39) المصدر نفسه ص 34.
- (40) المصدر نفسه ص 35.
- (41) المصدر نفسه ص 41.
- (42) المصدر نفسه ص 42.
- (43) المصدر نفسه ص 49
- (44) المصدر نفسه ص 51
- (45) المصدر نفسه ص 59
- (46) المرجع نفسه ص 61.
- (47) المصدر نفسه ص 64
- (48) المصدر نفسه ص 85
- (49) المصدر نفسه ص 179.
- (50) المصدر نفسه ص 186.
- (51) نفسه ص 198.
- (52) نفسه ص 265.
- (53) نفسه ص 342
- (54) حسن مجراوي: شرعية القضاء، ص 53.
- (55) ذاكرة الجسد، ص 394.
- (56) ذاكرة الجسد، ص 403.